إشكالية السوسيولوجيا والممارسة السوسيولوجية في الجامعة الجزائرية

مخاض دون ولادة

د. علي عليوة

أستاذ محاضر "ا"

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

سوق أهراس

تمهيد: إن علميّة العلوم الاجتماعية تطرح على مستوى الصرامة العلمية، وعلى مستوى الحتمية مجموعة من التساؤلات التي تتردد في أذهان الباحثين والمتخصصين أسئلة إبيستمولوجية، تكاد تعصف بالكثيرين في دوامة شك متزايد يصل إلى حد التشكيك بل اليقين على أنها ليست علوما بالمعنى الحقيقي للكلمة، فنجد الدارس وحتى المتمرّس في هذه العلوم يجد مختلف التسميات بأشكالها وفروعها ومفاهيمها، نجده لا يتوغّل في حقيقة هذه العلوم، ولا يحاول مجرّد التساؤل بينه وبين نفسه وتصوراته في حقيقة ما يدرسه وما يقدمّه كمادة علمية للآخرين، في قطيعة بينه وبين ذاته المتسائلة عن هويّة العلوم الاجتماعية، وعن اشكالياتها، في عملية فكريّة معقدة، مكوّنة بين فكرتين أساسيتين، **أولها** هي أن المتخصص والمشتغل في حقول العلوم الاجتماعية يدرك جيدا ما تعنيه الظاهرة العلمية، وما هي خصائصها ومميّزاتها بعيدا عن الفكر والفلسفة ... يدرك جيّدا طبيعة كلمة "علم" وما تحمل من دلالات قويّة وواضحة، **والثانية** كونه يدرك حقيقة الظاهرة الاجتماعية وما يكتنفها من جدل حول التغيّر والنسبية وعدم الاستقرار والثبات، فتبدو العمليّة معقّدة في إسقاط المفهوم الأول على الثاني، وإسناد متغيّر "علم" إلى متغير "ظاهرة اجتماعية"، فيبدو –ربما- الدخول في دراسة علاقة تركيبية بينهما ضرب من ضروب إقحام الذات في دائرة شك إن لم نقل خوف من صعوبة التصور التركيبي للمفهومين، فتلجأ الذات الباحثة للهروب من التفكير في هذه العلاقة، بينما تبقى العلاقة قائمة تطرح تساؤلاتها على نفسها وتظهر بين الفينة والأخرى للذات الباحثة، وتفرض نفسها في مجال إبيستمولوجيا العلوم الاجتماعية، والتي تبحث وتنقد كل جزئياتها وتفاصيلها ومناهجها ومسلماتها، في عملية تسهم كثيرا في بناء تصورات جديدة، بل ومقاربات نظرية جديدة، وجديرة بفهم الواقع الاجتماعي بل وفهم كل الميكانزمات والآليات التي تستطيع تغيره وتوجيهه وفهمه.

إنّ الانغماس بشكل ميداني وتجريبي في دراسة الظاهر الطبيعية وعلوم المادة والبيولوجيا وغيرها من العلوم التجريبية والرياضيات، من شأنه أن يعطي صبغة الصرامة العلمية والدقّة والموضوعية لتصورات الباحث وفكره وتجاربه، بل تفسير كل ما يحيط به، لذلك نجد الكثيرين ممن أبدعوا في الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وكان مردودهم العلمي والمنهجي بمثابة ثورة منهجية، فنجد على سبيل المثال لا الحصر بارطلونفي Ludwig von Bertalanffy وغاسطون باشلار Gaston Bachelard فالأوّل درس العلوم الطبيعية والخلايا والتبادل والانقسام الخلوي واستخرج منها مقاربات استطاع توظيفها في علم الاجتماع عن طريق إسقاط مفهوم الخلية على النسق الاجتماعي ومن ثمة التنظير للتبادل بين الأنساق بدل الخلايا، والانقسام في النسق بدل الخلايا أيضا، والتكيف وغيرها من فكر أسّس لنظرية كبرى في علم الاجتماع سُميت النسقية.

أما رائد الفلسفة العلمية غاسطون باشلار فقد تكلم عن الكثير من الجزئيات التي يشير فيها بصيغة غير مباشرة تارة ومباشرة تارة أخرى عن تطبيق هذه المناهج الموجودة في العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء والرياضيات على العلوم الاجتماعية، بل اعتبر أن تطبيق هذه المناهج على العلوم الاجتماعية أسهل من غيرها، لأن غيرها يتعامل مع مادة جامدة تتغير إلا بإضافة أبعاد أو مؤشرات، أما الإنسان فهو المادة التي يمكن التجريب عليها وملاحظة سلوكاتها بإدخال تلك المؤشرات.

إنّ ذلك الكلام المستهلك الذي يشير إلى أن كل فكر يملك "موضوع" و "منهج" فهو علم !!!!! هو كلام عاري من الصّحة وكلام ساذج لا يخرج إلا من أفواه لا تفهم ما معنى العلم أصلا، فالفلسفة لها منهج وموضوع ومع ذلك فهي ليست علم.

إنّ الفيصل الوحيد بين حيزي الفلسفة والعلم هو "القانون"، وكل دراسة لا تحتوي على قانون فهي دراسة فلسفية أو فكرية خالية من العلمية، فالقانون هو القاعدة الثابتة التي تُدير الظواهر وتقرأها، فإن توفرت نفس الأسباب أدت حتما إلى نفس النتائج.

1- القانون في العلوم الاجتماعيّة: يمكن طرح أسئلة تتدافع وتتدافع على ذهن القارئ والمتمرّس في العلوم الاجتماعية إذن، أهمّها حسب الطروحات المذكورة سالفا:

هل يوجد قوانين في العلوم الاجتماعيّة حتى نتمكّن من اعتبارها علوما ؟؟

هل نفس الأسباب في الظواهر الاجتماعية تؤدي حتما إلى نفس الأسباب؟؟

سؤالان إشكاليان يجب فكُّ لغزيهما، إن استطعنا أن نجد مخارج منهجية وإجابات مقنعة فقد تجاوزنا الأزمة الحاصلة بيننا وبين الموضوع، واعتبرنا بذلك أنّ العلوم الاجتماعيّة علوما حقيقيّة، وإن لم نستطع فقد اختزلنا عقودا من البحوث التي كنّا نعتقد أنها علمية اجتماعية لنركنها جانبا إلى بوتقة الفكر والدراسات الفلسفيّة.

صراحة ... تبدو السوسيولوجيا العربية ضعيفة جدا مقارنة بنظيراتها سواءا الأوروبية أو الأمريكية والأمريكية اللاتينية أو حتى الآسيوية، هي ضعيفة كون متغيّرات نشأتها لم تكن عفوية فرضها منطق النشأة كما في أوربا وغيرها، إنها مسألة محاولة تقليد غيرها لا أكثر ولا أقل، بمبدأ " **يوجد عندهم سوسيولوجيا، فيجب أن تكون لدينا** " دون فهم إشكاليتها ووجودها أصلا في الجامعة والحياة عموما، وكلامنا عن السوسيولوجيا لا يعني المادة النظرية والمقاربات والتاريخ فقط، بكل السوسيولوجيا كعلم شامل بمناهجه وطرق العمل به.

إن الإحاطة الجيدة بالمنهج والمنهجية من شأنه أن يزيح اللبس عن علمية السوسيولوجيا، لأنّ المواضيع السوسيولوجية عندنا أصبحت مزيجا بين الفلسفة والفكر الاجتماعي والتربية الإسلامية وغيرها من "الحس المشترك" الذي تكلّم عنه بيار بورديو في كتاب "مهنة عالم الاجتماع" [1]، وما رسّخه دوركايم في كتاب "قواعد المنهج في علم الاجتماع"[2] ، أو ما فصّله رائد الفلسفة العلمية غاسطون باشلار حول ضرورة القطع والقطيعة والابتعاد عن الأفكار المسبقة حول المواضيع.

إنّ القانون في العلوم الفيزيائية -على سبيل المثال لا الحصر- هو قالب علمي يتكون من متغيرات وعلاقات بينها ونتائج، مثلا في قانون بسيط أن سر= م/ز، أي السرعة تساوي حاصل قسمة المسافة على الزمن.

فالمتغيّرات هما السرعة والزمن، والعلاقة بينهما هي القسمة، والنتيجة هي السرعة.

إنّ هذه القوانين الفيزيائية قوانين تمتاز بالدقة والعموميّة (التعميم) والباحث له أن تقيسها في أي مكان وأي زمان وأي ظرف، فهي قوانين نتاج بحوث وقياسات رسّخت مبدأ الحتمية، حيث كلما توفرت نفس الأسباب (المسافة ، الزمن) أعطت حتما نفس النتائج (السرعة)، والباحث يستخدم القانون بعدما يوفر معطيات وقياسات ولا وكم نظري وواقع يريد قياسه فيستخدم القانون أو ما نسميه نحن في علم الاجتماع (نموذج تحليل) في وضع مادته التي جمعها

---

[1] "Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon et Jean-Claude Passeron, **LE METIER DE SOCIOLOGUE**,MOUTON, PARIS ,1968.

[2] E. Durkheim, **Les règles de la méthode sociologique**, Paris, Flammarion, 1988.

وأراد أن يختبر العلاقات الموجودة بين متغيراتها ليصل إلى نتائج علمية ناتجة من تطبيق قانون علمي أو نموذج تحليل تبناه الباحث في دراسة الظاهرة.

2- المقاربة النظرية ونموذج التحليل هي التي تصنع القانون في السوسيولوجيا: من خلال ما تمت الإشارة إليه سالفا من أنّ الباحث في العلوم الطبيعية أو الفيزيائية أو غيرها بحاجة إلى قانون علمي يستوعب دراسته ويُضفي عليها صفة العلميّة لأنّه بناها طبقا لمنهج علمي ونموذج للتحليل هو قانون علمي معتمد، ليصل لنتائج دقيقة، فنفس المبدأ موجود في السوسيولوجيا لكن ليس بنفس تصوّراتنا للقانون، فهو يحمل نفس الصيغة (متغيرات ونتائج وعلاقات) لكنها تتماشى وطبيعة السوسيولوجيا التي هي بحاجة إلى عنصرين مهمين "المقاربة النظرية" و "نموذج التحليل".

فالمقاربة النظرية هي الوعاء النظري (العلمي) الذي يتبنّاه الباحث والذي يُبنى من خلاله إشكالية تصل إلى طرح المشكل الموجود أو الظاهرة من خلال مفاهيم المقاربة وتساؤلاتها واشكالياتها وجزئياتها، فالباحث يفتك الموضوع الاجتماعي انطلاقا من لاشفافية الواقع الاجتماعي وذلك بإسقاط تقريب نظري كفيل بضمّ الموضوع وإعطاءه صبغة سوسيولوجية، لذلك فالمقاربات النظرية هي الوحيدة القادرة على افتكاك المواضيع وإعطائها طابع العلمية والتخصّص، فكل علم يفتك الموضوع ويتبنّاه ليس لذات الموضوع أنه ينتمي لذات العلم، لكن لأن ذاك العلم هو الذي أضفى مقارباته على الموضوع.

والسوسيولوجيا مثل كل العلوم الأخرى لها مقارباتها التي يقفز عليها أغلب الباحثين متجاهلين سطوة المنهج والصرامة العلمية التي يجب إتباعها فيعتبرون أنّ أسئلة الانطلاق التي يصوغونها هي إشكاليات، وبالتالي فهم يختزلون المراحل المنهجية الحقيقية ويتجاوزون "القوانين العلمية" فتتحوّل دراساتهم إلى مجرد كلام عبثي مبني انطلاقا من تصورات وأفكار مسبقة حول الموضوع وحس مشترك تتساوى فيه مثل هذه الدراسات التي يعتبرونها علمية، تتساوى مع المعرفة العامية وهذه هي المعضلة الحقيقيّة التي أسقطت السوسيولوجيا العربية في فخ اللاعلمية انطلاقا من عدم الإحاطة بالمنهج والمنهجية السوسيولوجية.

نموذج التحليل: مثلما يعتمد الباحثون في العلوم الطبيعية والفيزيائية وغيرها على نماذج تحليل تُعتبر قوانين يدرسون من خلالها العلاقات بين المتغيرات، ففي علم الاجتماع نماذج تحليل وجب الرجوع لها والاستناد عليها في تحليل الظواهر الاجتماعية وصياغتها كفرضيات للدراسة، وبالتالي نخرج من دائرة تلك التعاريف المستورة والمصابة بالرعونة إلى تعاريف منهجية وعلمية، فكلنا نعي جيدا أن التعريف الرائج للفرضية هو "ذلك التفسير المؤقت لمشكلة ما أو إجابة مؤقتة عن سؤال إشكالي لظاهرة ما" وهو تعريف مغلوط منقوص يضرب عرض الحائط علمية

السوسيولوجيا ويعصف بها بعيدا عن الصرامة العلمية، في حين يمكن أن نضيف كلمة واحدة يمكنها أن تستدرك أخطاء هذا التعريف كأن نقول "هي إجابة علمية مؤقتة"، ويمكن أن نجزم بأن أحسن تعريف للفرضية ونموذج التحليل هو "مشروع قانون علمي".

لذلك فنماذج التحليل التي تُبنى على مقاربات سوسيولوجية هي السبيل الوحيد لوضع البحث على السكة المنهجية الصّحيحة، فالفرضيات يجب أن تمتلك مبرّرات علمية مقارباتية وليست تكهنات مسبقة قد تكون شخصية تدفع البحث نحو طريق آخر غير البحث السوسيولوجي.

والقوانين الاجتماعية موجودة وبكثرة في النظريات السوسيولوجية ونعطي على سبيل المثال قانونا سوسيولوجيا لدوركايم يمكن اختباره في الزمان أو المكان "كلما زاد التماسك الاجتماعي قل الانتحار" فعندما تكون الجماعة متماسكة يتماسك فيها الأفراد وتتبلور قيم وقواعد السلوك لتنظيم العلاقات بين الأفراد، بمعنى آخر فالجماعة تعمل على مساعدة الأفراد في إيجاد السبل الناجعة لتحقيق ما يصبون إليه وبالتالي تقل نسب الانتحار في مثل هذه المجتمعات"[3]... فهذا القانون السوسيولوجي صالح لكل مكان وزمان حتى يتمكن منظّر آخر من دحضة مثلما فعل روبرت مرتون مع نظرية تالكوت بارسونز التي عدّلها، لذلك فالقول بأنّ الفرضية تمّ نفيها تحمل احتمالين/

- أنّ بناء نموذج التحليل كان بطريقة غير علمية وتكهنات شخصية مسبقة لا تمد بصلة للسوسيلوجيا ولا للمنهج.
- أو أن الباحث أصبح منظّرا في السوسيولوجيا.

ويعتبر كلود برنارد أول من صاغ فرضا علميا في تجربته قائلا " ذات يوم، أحضر لي أحدهم أرانب اقتناها من السوق. وحين وضعتها على منضدة المختبر تبولت، فلاحظت بالصدفة أن بولها صاف وحمضي. واسترعاني ما لاحظته، لأن بول الأرانب يكون، عادة، مكدر اللون وغير حمضي ، باعتبار أنها حيوانات عاشبة، في حين أن بول الحيوانات اللاحمة يكون، كما هو معلوم، صافيا وحامضا. وقد قادتني ملاحظتي للحموضة في بول الأرانب إلى تصور أن هذه الحيوانات قد أخضعت لنظام غذائي يناسب الحيوانات اللاحمة. فافترضت أن من الأرجح أنها لم تذق الطعام منذ فترة طويلة، وأنها تحولت، بفعل الإمساك الطويل عن الأكل ، إلى حيوانات لاحمة تقتات من دمها لكي تعيش. ولم أجد أمرا أيسر من التحقق، بواسطة التجربة من صحة هذه الفكرة المفترضة أو هذه الفرضية.

---

[3] عياش احمد، **الانتحار :نماذج حية لمسائل لم تحسم** بعد، ط 1 دار الفارابي بيروت, لبنان، 2003، ص 118.

لذلك تستند الفروض لمرجعيات علمية تجعل إطار البحث في مشروع علمي وليس تكهني، كما تتكون الفرضية من متغيرين أو أكثر.

وتبدأ كل الدراسات العلمية الأصيلة بتصوّر للمنهج، تصور عام يتيح للباحث هوامش مقاربة بحثه بنظرة دقيقة وتصوّر عميق للمنهج أو الطريقة التي من خلالها يمكن له أن ينتهج سبيلا علميا يسمو بأفكاره إلى أن تصل بر الأمان لكشف الحقيقة وأسبابها الخفية، فالعلم أساسه البحث عن ما تخفيه الظواهر"Il n'y a de science que de caché ce qui est" [4]، لكن ذلك لا يتأتى إلا بالانصياع التام للمنهج العلمي والصرامة العلمية ضاربا عرض الحائط كل الأحكام المسبقة، متجردا من ذاتيته، حيث تبدو الظاهرة الاجتماعية كشيء منفصل عن ذاتنا انفصالا تاما، لذلك يجب أن يكون المنهج في العلوم الاجتماعية متناسقا في مراحله وفق مبادئ منطقية متسلسلة كما أشار إليها إيميل دوركايم Emile Durkheim:

أ. لا شفافية الواقع : فالبحث الذي يدخل إلى خفايا الظاهرة ويحاول الغوص في جزئياتها وتجلياتها هو البحث الهادف، فرؤية الباحث يجب أن تكون لواقع غير شفاف مغاير للرؤية العامية، فالمواضيع في العلوم الاجتماعية غير معطاة انطلاقا من لاشفافية الواقع الاجتماعي، والذي يضمر أسبابا خفية تحتاج ما يسمى بـ"الخيال السوسيولوجي" [5]، وهو"الاستعادة التصورية (الخيالية) لنسيج الحياة الاجتماعية التي اندثرت اليوم إلى حد بعيد" [6]، من أجل فك شفراتها وإيجاد رؤية واضحة لأسبابها والبحث عن تشخيص لعللها.

ب.تفسير الاجتماعي بالاجتماعي: تعتبر هذه الخطوة أو هذا التصور غاية في الأهمية لمن أراد أن يدرك المعنى الحقيقي للدراسات السوسيولوجية، كون هذا التصوّر يفصل فصلا تاما بين العلوم، فيحدد حقول بحثها، وحيز تجاربها ومقارباتها، حيث يتم في العلوم الاجتماعية تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، أي أن كل علة اجتماعية لديها ما يقابلها من معلول اجتماعي، ولا غير الاجتماعي... والاجتماعي يخضع لمعايير مقارباتية سوسيولوجية، أي أن المقاربة السوسيولوجية هي التي تفتك الموضوع وترفعه إلى مستويات علمية وتعطيه التأويل السوسيولوجي، فالخروج عن هذه القاعدة يجعل مسار البحث يحيد عن المسار الحقيقي للعلوم الاجتماعية ويبعدها عن الصواب، كون أنّ تفسير الاجتماعي بالميتافيزيقي أو الديني أو النفسي يجعل من الموضوع يأخذ سياقا آخر غير البحث السوسيولوجي، أي أنّ الظاهرة الاجتماعية يجب أن يقابلها ما هو اجتماعي قابل للقياس، "فإما أن تكون الظاهرة جزءا لا يتجزأ من بقية

---

1. [4] Gaston Bachelard, **Le rationalisme appliqué**, Paris, PUF, 1949, p. 38.
2. [5] Cf. Wright Mills, **L'imagination sociologique**, Paris, Maspéro 1977.

[6] Giddens (A), **Profiles and critiques in social theory**, Mac Mila, London, 1982, p43.

المجتمع، ومنها ما يرجع للتأثير المتبادل بين هذا المجتمع وبين المجتمعات التي تجاوره" [7]، لذلك يجب على الباحث في الظواهر الاجتماعية أن يعي حقيقة الظاهرة الاجتماعية والطرق المناسبة للكشف عن خفاياها وأسبابها كما يذهب إميل دوركايم ، "يجب أن نعلم قبل البدء في البحث عن الطريقة التي تتناسب مع دراسة الظواهر الاجتماعية حقيقة الظواهر التي يطلق عليها الناس هذا الاسم".[8]

ج.ملاحظة الظواهر الاجتماعية كأشياء: حيث أن لعلم الاجتماع موقف منهجي يدرس الظاهرة كشيء مادي، وأكّد دوركايم على ضرورة تناول الظواهر الطبيعية كأشياء، وهو "التأكيد الذي صراحة أو ضمناً محاكاة العلوم الطبيعية، وتطبيق نظرتها وتصوراتها للظاهرة الطبيعية على مختلف الظواهر الاجتماعية" [9]، وبذلك يماثل دوركايم بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية، "فكما أن للكائن العضوي تعبير للكائن العضوي ووظائفه، فإن الحياة الاجتماعية تعبير وظيفي عن البناء الاجتماعي"[10].

لذلك يؤكد دوركايم على وجوب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء وذلك بالتخلص من طريقة المعاني الشائعة والأفكار غير الممحصة لأن المعاني لا تقوم بحال من الأحوال مقام الأشياء نفسها. ويرى دوركايم أن هذه المعاني تشبه الأصنام أي الأشباح التي تشهد المنظر الحقيقي للأشياء والتي يخيل للإنسان أنها هي الأشياء نفسها، فعلى الباحث أن ينظر إلى الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء خارجية منفصلة عن شعوره الداخلي في ضوء هذا الاعتبار تتحقق موضوعية الظاهرة وشخصيتها العلمية[11].

د.ضرورة الاعتماد على المنهج الوضعي: الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة والتكميل الرياضي للوصول إلى قوانين، وترتبط الوضعية بالنسبة **لكونت** A.Comte ببروز مرحلة العلم التي تميز "المرحلة الوضعية" وهي آخر محطة في "قانون المراحل الثلاث" بعد "المرحلة التيولوجية" (الدينية) و"المرحلة الميتافيزيقية" (الفلسفية) ، ويرتبط المذهب الوضعي بالمنتوج "الناضج" الذي قدّمه التطور البشري، والخدمات الجمّة التي أسدتها العقلانية العلمية له، وعلى المعرفة عند

---

[7] إيميل دوركايم، **قواعد المهج في علم الاجتماع**، ترجمة محمد قاسم، مكتبة النهضة المصرية، 1961،ص 229- 233.

[8] المرجع نفسه، ص50.

[9] محمد عاطف غيث، **علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع**، دار القاهرة 1980، ص 46.

[10] أحمد أبو زيد، **البناء الاجتماعي: مدخل لدراسة المجتمع**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص71

[11] علي، عليوة، " **مقال في المنهج**" في مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، جامعة الجلفة، العدد الثالث، ص 148.

كونت أن تستند في منهجها على ملاحظة الواقع بعيداً عن المعارف "المسبقة"[12] ، ما يجعل من الوضعية نسقاً إمبريقياً يرتبط باللولائية أو الديرجة للعلم، والتي تقوم على الحتمية الميكانيكية.

وهنا يبدو أن موقف **كونت** A.Comte غامض، فهو من جهة يشير إلى أن أي اقتراح لا يمكن أن يكون ذو معنى ما لم يتمّ بلورته في فعل ملموس، في حين أنّه ينتقد من جهة أخرى الإمبريقية ويحتج على **كانط** Kant **وليبنتز** Leibnitz لأنّهما يعلنان عن وجود تنظيمات ذهنية تلقائية عند الإنسان.[13] .

ولا يجب الخلط بين المذهب الوضعي والمقاربة الوضعية في بناء المعارف، فمفهوم الوضعية في الحالة الثانية نقيض "المعيارية"، فلا يمكن للمعرفة أن تكون وضعية إلاّ إذا تناولت ما هو كائن، بعيداً عن "المعيارية" التي تبحث عما يجب أن يكون أو ما هو ذاتي.

ونجد في هذا المجال رائد الفلسفة العلمية غاسطون باشلار، باستعماله لبعض المفاهيم الأساسية التي أحدثت هزات على مستوى تاريخ العلوم شأن مفهوم «التجاوز» و«القطيعة الابستمولوجية»، كان محط اهتمام وتأويل واسع من طرف معاصريه، مثل المفكر الماركسي ألتوسير الذي استعار مفهوم «القطيعة» واستخدمه من أجل فهم وتطوير فكر ماركس. ذلك أن قراءة ألتوسير لماركس طرحت إبراز المفاهيم المكونة للإشكالية التجريبية أو الاختيارية، للنقد والمراجعة، فالغالبية العظمى من الفلسفات قد استغلت العلوم لأهداف تبريرية تخرج عن أهداف الممارسة العلمية. والحال أن التأويلات الفلسفية لنتائج العلوم بغاية التدليل على بعض القيم الخارجة عن مجال العلم لا تعكس الحقيقة العلمية كما هي بل تعكس منها أعراضا إيديولوجية عملية. ومن مهام الفلسفة، بحسب ألتوسير، رسم الحدود بين ما هو للإيديولوجيا، من جهة، وما هو للعلم من جهة أخرى؛ أي إبراز صور وألوان تسرب الإيديولوجية النظرية والعملية إلى الممارسة العلمية، وفهم العلماء لما يفعلونه، لذلك قدّم باشلار تصورات منهجية صارمة، توصف هذه التصورات بالمراحل المنهجية للمنهج العلمي، حيث يخضع الباحث نفسه لإجراءات منهجية تجعله لا ينغمس في ذاتيته ولا إيديولوجيته، بل تبدو الظواهر له كأشياء، في فكرة رائعة لإسقاط المنهج العلمي في العلوم الطبيعية وعلوم المادة على العلوم الاجتماعية.

3- مهنة عالم الاجتماع والقطيعة مع الحس المشترك: في كتاب بيار بورديو مع جان كلود باسرون وجان كلود شامبوردون تحت عنوان "مهنة عالم الاجتماع " Le Metier de Sociologue[14] والذي صدرت الطبعة الأولى منه سنة

---

[12] A.Comte, **Discours sur l'esprit positif**, Idea, Cérés, Tunis, 1994, p.10-20

[13] Ibid, p 34.

1968 يطرح بورديو أسس الطريقة السوسيولوجية التي تفترض من جهة إحداث القطيعة مع الحس المشترك SENS COMMUN ومن جهة أخري بناء الموضوع السوسيولوجي، وتفسر ضرورة إحداث القطيعة مع الحس المشترك من خلال الأخطار التي يحملها والحس المشترك يمكن أن يفسر كمجموعة الآراء والمعتقدات المقبولة في جماعة معينة أو عند جماعات اجتماعية خصوصية وهذه الآراء والمعتقدات تعتبر وكأنها مفروضة على تفكير وكل اختصاص.

إنّ الحس المشترك الذي يتكلم بيار بورديو يعيشه أغلب السوسيولوجيين العرب الذين يعيشون حالة من التيهان في ماهية السوسيولوجيا واشكالياتها ووجودها أصلا في الجامعة ولماذا يدّرسونها للطلبة!!!

نعم... ربما تعتقدون أنني متشائم كثيرا، لكن أعتقد أنني متفائل لأنني لم كل الممارسين في الحقل السوسيولوجي لا علاقة لهم بالحقل الاجتماعي الحقيقي وهو المجتمع وليس تدريس الطلبة وحشو عقولهم بالمقاربات النظرية التي تبقى زاد دراسي يأخذه الطالب لأجل النجاح في الامتحان ثمّ نسيان كل ما درسه لأنّه لا يوظّفه مثل ما يوظّف طالب الطب دروسه التي يجد لها تطبيقا مباشرا على أرض الواقع.

طالب الطب على سبيل المثال يأخذ دروس السنة الأولى وهو يتدرّب يوميا على محاولة التدخّل بعلمه الذي استزاده من الجامعة في حالات مرض تحصل أمام عينية، ليقوم بإسعاف مريض، وإعطاء حقنة ونصيحة طبية لصديق وغيرها من الممارسات التي لها علاقة بما يدرسه ... ثم في السنة الثانية يمكن أن يوجّه أحدهم لطبيب مختص وأن يحضر بنفسه لعملية جراحية، وأن يخيط جرح أحدهم، وكل عام يستزيد ويمارس علمه حتى يصل إلى ذرة علمه بنهاية التخرج ليصبح طبيبا قادرا على استيعاب المريض نفسيا وتشخيص مرضه وعلاجه. إنها الممارسة الطبية التي يمارسها الطالب والأستاذ، فالأستاذ يدرس في القسم لكن هو طبيب جراح لا يكتفي بتقديم المحاضرات النظرية بل يجري عملية لإنقاذ مريض من الموت، ويوجّه آخر وهو في علاقة دائمة بكل جديد لأن الواقع والممارسة تفرض عليه نسقا من الإجراءات التي يجب أن يتبعها وإلا أصبح في عداد الفاشلين.

في السوسيولوجيا ... لا الأستاذ ولا الطالب في ممارسة لما يدرسونه إلا بعض الحالات الشاذة هنا وهناك، فأصبح الأستاذ _ الذي من المفترض أن المجتمع هو حقل دراسته- أصبح لا يدخل الأماكن المكتظة مثل الأسواق وحافلات النقل العمومي لأنه لا ينزل من سيارته المكيفة ولا يحب "الغاشي" هذا الغاشي الذي وصفه بيار بورديو بأنه "خصب بالظواهر الاجتماعيّة" الجديرة بالدراسة.

---

[14] "Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon et Jean-Claude Passeron, **LE METIER DE SOCIOLOGUE**,MOUTON, PARIS ,1968.

كلنا نحمل تمثلات حول الواقع المحيط بنا ، فهي تعطينا التفسيرات التي نعتقد أنها مقبولة وصحيحة للظواهر التي نشاهدها ، هذه التمثلات هي بمثابة مرشد ومعلم في نشاطنا الاجتماعي اليومي كما تعطينا الشعور بفهم العالم المحيط بنا وفي هذا الصدد فهي تغدو ضرورية للحياة في المجتمع بالمعنى العامي.

وهكذا ففي الوضعية العادية للتفاعل مع شخص لا نعرفه، فإننا نستحضر كل أنواع التمثلات الهادفة إلى تشخيصه المظهر الخارجي الذي يسمح بمعرفة سنه ولباسه لتحديد أصله الاجتماعي وطريقة كلامه ونبرته التي تكشف عن أصله الجغرافي ولكن تصورنا للعالم تشكله كذلك التمثلات المنظومات الدينية والإيديولوجيات السياسية والصياغات العلمية هي بدورها منظومات للتمثل تتغير حسب المجتمعات والمراحل الزمنية ولكن كذلك حسب الأفراد والجماعات... لكن السوسيولوجي يجب أن يخرج من بوتقة هذه التمثلات ويخضع للمنهج العلمي الذي ربما سيعطيه نتائج تختلف وتمثلاته التي يعتبرها صائبة.

قائمة المراجع:

1. أحمد أبو زيد، **البناء الاجتماعي: مدخل لدراسة المجتمع**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص71
2. إيميل دوركايم، **قواعد المهج في علم الاجتماع**، ترجمة محمد قاسم، مكتبة النهضة المصرية، 1961،ص 229- 233.
3. علي، عليوة، "**مقال في المنهج**" في مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، جامعة الجلفة، العدد الثالث، ص 148.
4. عياش احمد، **الانتحار:نماذج حية لمسائل لم تحسم** بعد، ط 1 دار الفارابي بيروت,لبنان، 2003، ص 118.
5. محمد عاطف غيث، **علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع**، دار القاهرة 1980، ص 46.

6. A.Comte, **Discours sur l'esprit positif,** Idea, Cérés, Tunis, 1994, p.10-20
7. Cf. Wright Mills, **L'imagination sociologique**, Paris, Maspéro 1977.
8. E. Durkheim, **Les règles de la méthode sociologique**, Paris, Flammarion, 1988.
9. Gaston Bachelard, **Le rationalisme appliqué**, Paris, PUF, 1949, p. 38.
10. Giddens (A), **Profiles and critiques in social theory**, Mac Mila, London, 1982, p43.
11. Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon et Jean-Claude Passeron, **LE METIER DE SOCIOLOGUE**,MOUTON, PARIS ,1968.
12. Pierre Bourdieu, Jean-Claude Chamboredon et Jean-Claude Passeron, **LE METIER DE SOCIOLOGUE,**MOUTON, PARIS ,1968.